

## سوق السكّاجين :

# ضريح أحمد بن نفيس أو لغز القبر المجهول

فريد زمالي - محافظ مستشار بالمعهد الوطني للتراث

بتاريخ 21 نوفمبر 2020 نشرت جريدة «الشروق» مقالًا بعنوان «كنوز المدينة: قبـر السكّاجين ... الشيخ الرصّاع ... وأسطورة الشهيد».

جاء في تعليقها حوله ما نصّه:»اختفت مقبرة السلسلة التي كانت تمتدّ من القصبة إلى باب الجديد واندثرت شواهد القبور العتيقة ولم تتبق إلّا أطلال الزمن الغابر الملتبس بالخرافات الشعبية والأساطير المدهشة ولعلّ قبر «الجندي المجهول» في سوق السكّاجين هو إحدى هذه الأساطير التي شغلت الناس وأسالت الحبر دون أن تتأكّد الحكاية على سند تاريخي متين». وقد عثرنا على نصّ مهمّ ورد بـ «مناقب أحمد بن نفيس» لعلّه يميط اللثام عن لغز القبر المجهول ويكشف حقيقة من يثوي فيه. وهو نصّ قصير جاء مدمجًا في مصنّف من الجيل الأوّل من المصنّفات المنقبية على حدّ تعبير الدكتور زهير بن يوسف، ألّفه أبو الطاهر الفارسي (ت 440 أو 450 /1048-1058) حفيد المؤدّب محرز بن خلف للبنت (ت413 / 1022) وذلك في سنة 430/ 1039 ونشره الهادي روجي إدريس خلال سنة 1959.

### قبر السكّاجين بين الحكاية والتاريخ

تقع «سوق السكّاجين» في مدينة تونس العتيقة من جهة باب المنارة بينها وبين «سوق السرّاجين». ولفظ «السكاجين» محرّف عن الأصل»شكازين»(ج. شكّاز)، أي الحرفي المختص في صنع الأشكز وهي صناعة تجميل جلد السروج، جاء تعريفها في القاموس: «[الأشكز] هو شيء كالأديم الأبيض يؤكّد به السروج». وتمتد سوق الشكّازين على زقاق كبير تتفرع عنه أزقة فرعية صغيرة توجد فيها عشرات محلّات الحرفيين من صانعي الفضة والذهب وحرفييّ الجلود وصناعة وبيع النحاس وغيرها من الحرف التقليدية التي تشتهر بها مدينة تونس العتيقة. وفي مدخل هذه السوق من جهة باب المنارة وسط الزقاق، يتربّع قبر مجهول يعلوه تابوت خشبي شكله مستطيل تتنوّع زخارفه في كلّ مرّة حسب الصور المتوفّرة ويحيط به سياج خفيف يعزله عن المارة والفضوليين.

### حكاية شهيد الشرف

تعدّدت القصص والحكايات التي نُسجت في مخيّلة التونسيين حول سبب وجود هذا القبر اليتيم في قلب الزقاق.

تقول أكثر هذه القصص شيوعًا إنّ هذا القبر يعود إلى جندي تونسي قُتل زمن الاحتلال الإسباني (1535-1574) عندما كان يدافع عن فتاة تعرّضت للتحرّش من قبل أحد الجنود الإسبان وبقي يدافع عنها بمفرده إلى أن قطعت رأسه وسقطت جثته في ذلك المكان ودفن به. وعندما اتّسع عمران المدينة، لم يجرؤ أحد على هدمه أو إزالته من مكانه. ويقال إنّ كل من حاول ذلك سابقًا حصلت له مشكلة ما، أو أنّ القبر ينزف دمًا كلما اقترب منه نبشا أو هدما ولا يتوقّف ذلك النزيف إلّا إذا تمّ إغلاق القبر أو ترميمه من جديد.

وتقول رواية أخرى إنّ بعض جنود الحامية الإسبانية التي كانت بمدينة تونس قد حاولوا الاعتداء على فتاة تونسية عند مرورها بذلك الموقع. ولكنّ هذه الأخيرة تصدّت لهم ونجحت في قتل أحدهم دفاعًا عن نفسها، فقام أحد الجنود بقتلها انتقامًا لزميله. وما لبث أن بلغ الخبر إلى إخوتها فهبّوا إلى موقع الحامية ودارت بينهم وبين الجنود الإسبان معركة عنيفة قُتل خلالها جميع الإخوة ودفن كلّ واحد منهم في المكان الذي قُتل فيه، وهذا القبر لأحدهم ظلّ شاهدًا على موقع «ملحمة الشرف» رغم مرور السنوات.

### القبر المجهول ومثوى الإمام الرصّاع؟

جاءت محاولة التعرّف الوحيدة على صاحب هذا القبر من خلال ما ذكره حسين خوجة في كتاب «ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان»، حيث ذكر في ترجمة الشيخ العالم أبي العبّاس أحمد بن أبي يحيى الرصّاع (ت 1118/ 1706) أنّ قبره قد نقل بعد وفاته بأيّام لعارض لكنّه وُجد بمكانه الأوّل كما كان. إلّا أنّ هذه الرواية فيها نظر وتبقى مجرّد فرضية، لأنّها لا تشير إلى موضع القبر ولا إلى مكان نقله، كما أنّ عائلة الرصّاع العريقة لم تبرز على الساحة إلّا خلال النصف الثاني من القرن IX/XV، حيث ورد في ترجمة الرصّاع (ت894/1489) ممّا نقلناه عن كتاب «الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية» أنّه:»أبو عبد الله محمد بن القاسم بن أبي يحيى بن أبي الفضل بن محمّد الأنصاري الرصّاع. فقيه مالكي عارف بالعربية والطبّ، تلمساني الأصل، تونسي النشأة والقرار. كانت أسرته من بيوتات مدينة تلمسان في العهد الزيّاني، إذ عرف جدّه بترصيع الخشب، وإليه يعود ترصيع جامع العبّاد بحاضرة المغرب الأوسط. وفي مدينة تونس تولّى بعض أفراد هذه الأسرة الخطط العلمية والقضائية، من تدريس وتوثيق وخطابة وقضاء وإفتاء. تردّد أبو عبد الله محمّد على كتاتيب تلمسان لحفظ أسس اللغة في صباه وذلك قبل انتقاله إلى تونس في حدود سنة 831 / 1429، وكان صحبة أمّه مع السّفارة التي أرسلها الأمير الزيّاني إلى أبي فارس عبد العزيز، محمّلة بهدية. وممّا يسّر استقرار الأسرة بالحاضرة الحفصية، انتقال والده إليها قبل ذلك بسنتين، غير أنّ أسباب هذه الهجرة ظلّت غامضة «. وقد توفي محمد الرصّاع بمدينة تونس ودفن بمنزله الكائن بنهج الوصفان، عدد 14 حيث ظلّ قبره بصحن مسجده حتى وقت قريب وعليه نقيشة خُطّت بكتابة أندلسية جميلة.

أمّا بقية مشاهير هذه العائلة من المشايخ، فمنهم الشيخ أبو يحيى الرصّاع (ت1034/ 1624) ودفن بزاوية الشيخ القرطبي بمقبرة الزلّاج، وابنه الشيخ الفقيه أبو العبّاس أحمد الذي سبقت الإشارة إليه، وحفيده المفتي علي بن أحمد بن أبي يحيى (ت1720-1132/1719) والشيخ أحمد الرصّاع وابنه الشيخ قاسم وحفيده الشيخ حمّودة الذين تولوا نيابة القضاء المالكي بتونس والشيخ أبو عبد الله محمد بن حمودة الرصّاع، فلا نعلم إن كانت مواضع دفنهم بتربة جدّهم الأكبر أو بمقبرة الزلّاج إلى جوار الشيخ أبي يحيى.

ومع ذلك، فإنّ فرضية أن يكون القبر المجهول لواحد من أبناء هذه العائلة، تبقى مستبعدة لأنّ المعطيات المتوفّرة لدينا سابقة للفترة التي عاشت خلالها عائلة الرصّاع بنحو أربعة (4) قرون من الزمن.

### مقبرة السلسلة وحقيقة القبر المجهول تأسيس القصبة وبداية النهاية لمقبرة السلسلة

تعتبر «مقبرة السلسلة» من أقدم مقابر مدينة تونس ومع أنّنا لا نعلم على وجه الدقّة متى تمّ إحداثها، إلّا أنّ الواضح أنّها من المقابر الإسلامية الأولى، حيث كانت تقع داخل أسوار مدينة تونس في الناحية الجنوبية الشرقية وتمتدّ تقريبًا من موقع



صورة قديمة لتربة آل نفيس قبالة جامع القصبة



صور للجزء المتبقّي من مقبرة السلسلة خلال سنة 1905



القصبة إلى باب الجديد. وترتبط تسمية «السلسلة» بشواهد قبور العلماء الذين كانوا يُعرّفون بـ «سلسلة الذهب» لأنّهم قوم جمعوا بين العلم والعمل والورع ونسب الأنصار. وقد بدأت هذه المقبرة تفقد بعض أجزائها منذ سنة 555/ 1160 وذلك مع انطلاق أشغال تشييد القصبة في خلافة عبد المؤمن بن علي(558-487/ 1163-1094) وواليه على تونس الشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي تورفيان الهرغي. فقد جاء في كتاب «الحلل الموشية في ذكر الأخبار المرّاكشية» المنسوب للسان الدين بن الخطيب أنّ عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحّدين « لمّا نزل على تونس، بعث إليه أهلها يسألونه الأمان، فأمّنهم في أنفسهم وأولادهم، لا في أموالهم، ودخل الجيش المدينة، وحصلت أموالهم كلّها تحت التقييد، وبيعت أمتعتهم، وبنى بأعلاها قصبة أبراجها مثلّثة الزوايا، أمامها فصيل من نوعه، حال بين ساكنها وبين البلد». وقد كان هذا الفصيل فيما ذكره صاحب « مناقب ابن نفيس» جزءا من مقبرة السلسلة بعد أن تمّت إزالة القبور، حتى لم يبق منها جوفي القصبة سوى ضريح الشيخ علي بن زياد صاحب الإمام مالك(ت799/183) والجزء الواقع قبلتها وجنوب باب المنارة الذي تواصل استغلاله حتى بدايات القرن العشرين.

وقد نشأت بالمجال الذي أزيلت منه القبور عدّة معالم أبرزها تربة آل القاضي أبي زيد عبد الرحمن بن عمر بن نفيس(ت 682 /1283) الذي تولّى قضاء تونس بين سنتي 640 – 646 / 1242- 1248. وكانت تضمّ أضرحة اثنين من الأئمة من عائله ابن نفيس وواحد من دايات القرن السابع عشر، ثمّ قامت بلدية تونس بنقل هذه الأضرحة بين سنتي 1961 و1962 وتحويل التربة إلى فضاء تجاري، حسب ما أفادني به الصديق عادل التواتي. كما شيّدت بالتوازي مع هذه التربة، مقبرة بن مهنّا التي دفن بها أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن علي الحضرمي المعروف بابن عصفور (ت669 هـ/1270م) شرقي باب ينتجمي وهو أحد أبواب القصبة.

وفي عهد حمّودة باشا المرادي (1631- 1666)، تمّ في البراح الواقع بين باب المنارة



صورة قديمة بالأبيض والأسود للقبر المجهول

وتربة آل نفيس بناء «مارستان العزّافين» الذي حمل فيما بعد اسم « المستشفى الصادقي» ثمّ «مستشفى عزيزة عثمانة » وجعله «منزلًا لسكنى المرضى والجرحى من سفر البحر أو المحال أو الغزو في سبيل الله والفقراء الذين لا مال لهم وليس لهم من يقوم بهم ولا من يأويهم بمدينة تونس...». كما تمّ إصلاح حائط مقبرة السلسلة في عهد محمّد الصادق باي (1859- 1882) خلال سنة 1292/ 1875 وتمهيد الطريق بينها وبين باب المنارة «مراعاة للباب الذي فتحته جمعية الأوقاف في تلك الأثناء بجامع القصبة على الطريق المذكورة وكان بابه بداخل القصبة فيما تقدّم من القرون». وألحقت بالمستشفى الصادقي خلال سنة 1296 / 1879، الأرض الفسيحة الكائنة بالقصبة وكانت بها بضعة قبور بقية من مقبرة السلسلة الدارسة فنُقلت إلى مقبرة الزلّاج قبل ذلك بنحو ثلاثين سنة. وظلّ القسم الواقع جنوب باب المنارة حتّى بدايات القرن العشرين، حيث دُفن به الشيخ حسونة التركي إمام جامع القصبة (ت 1222/ 1807). وقد ضمّ حسب بعض الروايات ثلاث (03) طبقات وأحيانًا أربع (04) من القبور معتلية فوق بعضها البعض، منها ما يرجع للمائة الخامسة للهجرة، قبل أن يقع نقلها إلى مقبرة الزلاج ليترك المجال فسيحًا أمام الزحف العمراني الذي قضى على المقبرة بأكملها.

## ضريح أحمد بن نفيس أو لغز القبر المجهول

جاء في ترجمة أحمد بن نفيس أنّ« من المشائخ الصلحاء المشهورين والأولياء المذكورين الشيخ الصالح المقرئ أبو العباس أحمد بن عبد العزيز بن نفيس الغساني التونسي، رحمه الله تعالى ونفع به ... وهو مدفون بداخل تونس بباب المنارة، من ناحية الاجلبي بجهة القصبة السلطانية. وليس لتلك الناحية غيره. ولبقاء قبره هناك سبب وهو ما حدّثني به بعض المشائخ بتونس، قال لي: تعلم سبب بقاء هذا القبر هنا؟ قلت: أخبرني، قال لي الفقيه العالم أبو الحسين بن أحمد القمّودي: لمّا فتح الموحّدون إفريقية ودخلوا تونس واتّخذوا دار ملك جاء الوالي فبنى القصبة. فجاء أمام الباب قبور كثيرة كانت هناك فأمر بحفرها ونقلها. فمن كان له أهل نقلوه ومن لا أهل له ولم يعلم له قرابة نقله الخُدّام وتحرّزوا من نقل هذا الشيخ. فأعلموا الأمير بمكانته وقدره ورفعته. فقال: اقلعوه كغيره. فامتنعوا منه، فقام بعض الخدام المجترئين قال: أو خفتم من أمره؟ ها أنا أحفره لكم. وأخذ فأسًا وجعل يضرب في القبر، فطار فأسه من الأرض ورجع على ساقه فكسرها وانجرح جرحا عظيمًا. وأصاب الوالي الذي أمر بقلعه وجع، فبقي يتضجّر به إلى العصر فما زال عنه إلّا بخروج روحه. وتولّى وال آخر وسالت أدمية هذا الحفار ودهش أصحابه وبقوا وقوفًا ولم يتجرّأ أحد منهم أن يأخذ ذلك الفأس. قال: ومات الرجل من تلك الضربة بعدما بقي مبطولًا لا يزحف. فأعلموا الوالي الثاني بذلك، فقال: هذا ولي الله تعالى، فأديروا عليه حائطًا يصونه من الدواب واتركوه مكانه. فهذا سبب بقاه هنالك. والناس بكرة وعشيًا يأتون القبر، فيسلّمون عليه ويتوسّلون إلى الله تعالى به قضاء الحوائج. وعلى رأس القبر حجر من رخام مكتوب فيه تاريخ وفاته، رحمه الله يوم الجمعة لإحدى وعشرين خلت من شهر جمادى الأولى سنة تسع وسبعين وأربعمائة».

كما جاء في كتاب « الحقيقة التاريخية للتصوّف الإسلامي» لمحمد البُهلي النيّال، أنّه كان لهذا القبر حجر من رخام مكتوب فيه « هذا قبر أحمد المقري بن عبد العزيز بن نفيس رحمه الله توفي يوم الجمعة لأحد وعشرين خلت من شهر جمادى الأولى سنة تسعة وسبعين وأربعمائة». وقد كانت لهذا الشاهد صورة بمكتبة الصور بالمعهد الوطني للتراث غير أنّنا لم نعثر عليها.

## خاتمة

بعيدًا عن الحكايات الشعبية الموغلة في الخرافة والأسطورة واعتمادًا على النصّ الوارد بمناقب أحمد بن نفيس، أصبح بإمكاننا التأكيد على أنّ هذا القبر المؤرّخ بـ 21 جمادى الأولى 479/08 سبتمبر 1086، كان يقع داخل «مقبرة السلسلة» قبل إزالة القسم المقابل للقصبة في بداية الفترة الموحدية (555/1160). كما أنّ الفارق الزمني الكبير بين تاريخ بروز عائلة الرصّاع في مدينة تونس (القرن XV / IX) وتاريخ وفاة أحمد بن نفيس يجعلنا نستبعد فرضية نسبة القبر المجهول إلى لإمام أبي العبّاس أحمد بن أبي يحيى الرصّاع.


صورة للقبر المجهول قبل محاول الاعتداء عليه خلال سنة 2013


صورة للقبر المجهول بعد أن تمّ ترميم تابوته خلال سنة 2013